

مجلة الهلال

إبريل 2003

أحمد طه ونصف قرن من النضال

بقلم د. رعوف عباس

فقدت مصر، بل فقد النيل أحد أبنائه المناضلين من أجل حياة حرة كريمة للكادحين من أبناء وادي النيل، ومن أجل رفع راية الاستقلال الوطني على مصر والسودان. فقدت مصر، وفقد النيل أحمد طه المناضل النقابي، والنائب المدافع عن قضايا وطنه وقضايا جماهيره. ارتبط بالنيل وواديه منذ مولده في منتصف عشرينات القرن العشرين. والده الرئيس طه أحمد الذي عاش حياته على صفحة النهر المبارك، يقود المراكب الشراعية التي تقطع النهر صعودا وهبوطا، كما كانت تفعل منذ كانت الحضارة لا تزال في مهدها، وقدم هذا الإنسان المصرى البسيط لوطنه ولدين تعلمتا تعليما فنيا، التحق أكبرهما "عبد القادر طه" بخدمة الجيش المصري، وأصبح ضابطا من الضباط الأحرار، واغتاله "الحرس الحديدي"، قبيل قيام ثورة يولي. وكان ولده الثاني "أحمد طه" مناضلا وطنيا يعمل بين الجماهير، ويعيش قضاياهم، وقضايا الوطن، حتى وافاه الأجل في نهاية الشهر الماضي.

عرفت أحمد طه في شتاء عام 1965، كنت - عندئذ - أعد أطروحة الماجستير حول "الحركة العمالية المصرية" واستطعت خلال عام 1964 أن ألتقي النبيل عباس حليم، وأن أضع يدي على الخيوط التي قادتني إلى مجموعة النقابيين الذين تعاونوا معه، وكانوا يمثلون "اليمن" في الحركة العمالية. أما اليسار، فلم يكن هناك سبيل للتعرف على أقطابه فقد كان معظمهم قد خرج من المعتقل قبل شهور معدودة، ولم يطمئن أولئك الذين طرقت أبوابهم إلى ذلك الشاب المجهول الهوية، الذي يطرح الكثير من الأسئلة، ويستعلم عن كيفية الوصول إلى دوريات وأوراق الجناح اليسارى في الحركة العمالية.

وشاءت الصدفة أن ألتقى زميلا قديما بكلية الآداب جامعة عين شمس، هو الصديق سعد صمويل، بينما كنت أتفحص الكتب على سور الأزيكية، وكنت لم أسمع عنه منذ سنوات، وعندما علم بموضوع أطروحتي وما أعانية من صعوبة العثور على مادة عن الجناح اليسارى في الحركة العمالية، رحب بمساعدتي على الفور وتقديمي لبعض الشخصيات المهمة في هذا الفصيل من الحركة العمالية.

لم أكن أعرف أن غيبة الزميل التي طالت لسنوات كان سببها الاعتقال ضمن الموجة الشهيرة التي وقعت عشية ختام عام 1958 وجمعت كل نشطاء وكوادر التنظيمات الشيوعية. وبعد أن سرنا معا إلى إحدى

العمارات القديمة بالقرب من حديقة الأزبكية، صعدنا إلى إحدى الشقق تُوَجَّر غرفها كمكاتب، وفي إحدى تلك الغرف كان مكتب "دار الجماهير للنشر"، وهناك قدمنى سعد صمويل إلى أحمد طه، الذي قدمنى - بدوره- إلى محمود يوسف المدرك، ومحمود العسكرى، وعن طريق هؤلاء المناضلين الثلاثة، استطعت أن أتعرف على الدور البارز الذى لعبه اليسار فى الحركة العمالية.

وقد فتح لى "أحمد طه" بيته (برقم 1) شارع طاهر - قسم الساحل) حيث كنت ألتقيه عدة ساعات صباح الجمعة فى الأسبوع الأول من الشهر، ولمدة أربعة شهور، قدم لى فيها معظم ما حصلت عليه من معلومات حول "مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية" الذى تأسس فى أواخر الحرب العالمية الثانية، "واللجنة التحضيرية لمؤتمر نقابات عمال مصر" التى شكلت فى 1950، والجهود التى بذلت لتمثيل مصر فى المؤتمر التأسيسي لاتحاد النقابات العالمى عام 1954. مما شجع المدرك والعسكرى على مدى بالمعلومات وبعض الأوراق الخاصة "بلجنة العمال للتحرير القومى"، وأتاح لى فرصة إبراز دور اليسار فى الحركة العمالية: وتبين - من خلال حديثى مع آخرين من مختلف فصائل اليسار- أن الرجل كان موضوعيا، أميناً، فى كل ما قدمه لى من معلومات، لم يحاول خلالها أن يبالغ فى الدور الذى لعبته كوادر "الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدثو) نفى الحركة العمالية على حساب غيرهم من المنتمين إلى الفصائل الأخرى، رغم انتمائه إلى الفريق الأول".

جاء أحمد طه إلى الحركة العمالية من خلال نضاله شاباً فى مطلع العقد الثالث من عمره من خلال نقابة عمال ماركوني، وهى شركة الاتصالات التليفونية الدولية التى احتكرت هذه الخدمة فى مصر وغيرها من بلاد البحر المتوسط لنصف القرن، قبل أن يلتحق أحمد طه بها كفى اتصالات، فلا غرابة أن يفتتح وعيه على هيمنة رأس المال الأجنبي على الاقتصاد المصرى فى مختلف القطاعات، وما تعرضت له الطبقة العاملة المصرية من التعرض لأسوأ ظروف العمل وشروطه فى تلك الشركات الأجنبية التى مارست كل أشكال التمييز بين المصريين والأجانب من ناحية، وبين المصريين وبعضهم البعض، أى بين العمال والفنيين المصريين والنفر القليل من موظفى الإدارة من مواطنيهم، وكان ذلك التمييز واضحاً فى الأجور وساعات العمل ونظام الأجازات على وجه الخصوص.

وعندما نزل أحمد طه سوق العمل فى نهاية الأربعينات كانت مصر تموج بحركة سياسية وطنية نشطة تطالب بالتخلص من ربة معادة 1936 التى وضعت مصر ومواردها وشعبها فى خدمة "الحليفة" بريطانيا فى حرب عاد غنمها على الحلفاء وبقي غرمها للمصريين.

ولذلك نشطت التنظيمات السياسية الراضة للممارسات السياسية للأحزاب الليبرالية التقليدية التي تقلبت على الحكم فى ظل دستور 1923، تجاه القضية الوطنية (الاستقلال الوطنى)، وقضية الإصلاح الاجتماعى، ونعنى بها المنظمات الشيوعية، ومصر الفتاة، والأخوان المسلمين. فما أن وضعت الحرب أوزارها فى 1945، حتى عمت مصر من أقصاها إلى أقصاها حركة تطالب بالاستقلال التام، وتحقيق العدالة الاجتماعية، كانت حركات الرفض السياسى والطليعة الوفدية فى مقدمتها.

وهكذا أضاف أحمد طه إلى وعيه بما لهيمنة رأس المال الأجنبى من خطر على مصر، وعيا أعمق، بأصل هذه الظاهرة، وهو الوجود الاستعمارى البريطانى فى مصر، وكان طبيعيا أن يختار الوقوف فى خندق اليسار، ورغم اختياره النضال فى صفوف الحركة الديمقراطية للتحرك الوطنى، إلا أنه كان حريصا على الالتحام بالجناح اليسارى للحركة العمالية، والتعاون مع النقابيين من الفصائل الشيوعية الأخرى من أجل تحقيق الأهداف المشتركة للحركة العمالية المصرية.

ولا أعرف - تحديدا - متى انضم أحمد طه إلى "حدثو"، فلم أسأله عن ذلك، وكان الرجل لا يحب الكلام عن نفسه.

ولكننا نجده بين الكوادر النشطة التى شاركت فى تأسيس "مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية" الذى تكون فى ديسمبر 1945، فقد كان قانون الاعتراف بنقابات العمال الصادر فى 1942 يحرم تشكيل اتحاد عام لنقابات العمال، ومن ثم كان التحايل على القانون بإطلاق اسم "مؤتمر" على تجمع ما يزيد على 25 نقابة من نقابات عمال القاهرة فى قطاعات النقل والصناعة والخدمات فى شكل اتحاد هدفه المطالبة بتحسين أحوال العمل والعمال، وخاصة مواجهة مشاكل الغلاء وانخفاض الأجور والبطالة وعدم توفر التشريعات التى توفر الحماية للعمال وتؤمنهم ضد مختلف الأخطار.

وقد لعب النقابيون اليساريون دورا مهما فى حشد النقابات وراء هذا التنظيم العمالى فى خريف 1945، عندما نجحوا فى الترويج لفكرة اشتراك النقابات المصرية فى الاجتماع التأسيسى للاتحاد العالمى لنقابات العمال (W.F.T.U)، واستطاعوا جمع التبرعات الكافية لإيفاد ممثلين عن عمال مصر إلى الاجتماع التأسيسى المزمع عقده بباريس، فتم اختيار محمد يوسف المدرك، ودافيد ناحوم، ومراد القليوبى، ومحمد عبد الحليم، ممثلين لمجموعة من النقابات التى تقودها عناصر يسارية ذات توجهات مختلفة.

وتم اختيار محمد يوسف المدرك عضوا بمجلس الاتحاد العالمى للنقابات، كما تجدد انتخابه - مرة أخرى- فى المؤتمر الثانى الذى عقد بميلانو فى يوليو 1949. رغم غيابة وعدم وجود غيره ممثلا

لمصر في ذلك المؤتمر، أما المؤتمر الثالث الذي عقد في برلين عام 1951 فقد شارك فيه أحمد طه وحسن عبد الرحمن ممثلين "للجنة التحضيرية للاتحاد العام لنقابات عمال مصر".

وخلال تلك السنوات الست (1945 - 1951) كان أحمد طه، الشاب الذي بدأ نضاله النقابي مع عمال ماركوني قد أصبح كادرا نقابيا متميزا بفضل الخبرات التي اكتسبها من العمل النقابي والسياسي في تلك الفترة.

فلم يقتصر دور "مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية" -الذي كان أحمد طه من بين قياداته- على تبنى المطالب العمالية فحسب، بل شارك في العمل السياسي المطالب بتحقيق الاستقلال الوطني، وانضم "المؤتمر" إلى "اللجنة الوطنية للعمال والطلبة"، ومن ثم اشترك في تنظيم الإضرابات التي دعت إليها اللجنة، ومن بينها إضراب "يوم الجلاء" (21 فبراير 1946) وطالب المؤتمر من خلال نشرته التي كان يصدرها تحت اسم "المؤتمر" بتحقيق الجلاء عن وادي النيل، وتخليص الاقتصاد الوطني من السيطرة الأجنبية، وبين للعمال أن الكفاح ضد الاستعمار يؤدي إلى تحقيق المطالب الاقتصادية والاجتماعية للعمال، وأن "انتصار قضية الوطن انتصار لقضية العمال".

وكان التحام "مؤتمر نقابات عمال الشركات والمؤسسات الأهلية بالنضال السياسي الوطني عام 1946"، مشجعا لتوسيع نطاقه، وتحويله إلى تنظيم يضم جميع نقابات العمال في مصر، فأعلن "المؤتمر" عن تنظيم احتفال كبير بعيد العمال في الأول من مايو 1946، يعلن فيه تأسيس "مؤتمر نقابات عمال مصر" وعبثا حاولت الحكومة إجهاض المحاولة بمحاصرة مقر الاجتماع، ومنع العمال من دخوله، فتم عقد الاجتماع في مكان بديل، حيث أقرت لائحة التنظيم الجديد وبدأ المؤتمر ينظم حركة للمطالبة بتحقيق الجلاء التام "سياسيا واقتصاديا وعسكريا عن وادي النيل"، والمطالبة بتحسين الأجور ومكافحة البطالة والتأمين ضد البطالة، والإفراج عن المعتقلين من القادة النقابيين.

وسعت اللجنة التنفيذية للمؤتمر لتنفيذ إضراب عام (في 25 يونيو 1946) إذا لم تستجب حكومة إسماعيل صدقي باشا لمطالبهم. ولكن الحكومة نجحت في إقناع عمال النقل بالعدول عن فكرة الإضراب، على وعد ببحث مطالب العمال والاستجابة لها، وبذلك فشلت محاولة الإضراب العام. ثم جاءت ضربة 11 يوليو 1946 عندما ألقت حكومة صدقي القبض على كل العناصر النشطة في الحركة السياسية من المثقفين والطلبة والعمال على اختلاف انتماءاتهم وتوجهاتهم السياسية، وكان قادة "مؤتمر نقابات عمال مصر" من بين المعتقلين، وبذلك تم القضاء على تلك المحاولة التي استهدفت إقامة تنظيم موحد لقيادة الحركة العمالية.

كان أحمد طه - المناضل الشاب- طرفا فى تلك الأحداث، شريكا فيها فى حدود موقعه بين عناصر الصف الثانى من القيادات النقابية، ولكنه برز إلى الصف الأول فى المحاولة الثانية التى تزعمها كوادر "حدثو" لتأسيس اتحاد عام للعمال، فكان من قيادات "اللجنة التحضيرية للاتحاد العام لنقابات العمال بالقطر المصري" التى شكلت عام 1951 ورفعت المطالب المزمنة للعمال المتعلقة بالأجور وساعات العمل، وتشريعات العمل، إضافة إلى الاعتراف القانوني بحق الإضراب العام باعتباره حقا مشروعاً، والاعتراف بحق العمال فى إقامة اتحاد عام يجمع شمل النقابات ويدافع عن مصالح العمال.

وكان أحمد طه من بين القيادات التى نشطت لحشد النقابات وراء هذه اللجنة، فتم ضم أكثر من مائة نقابة إليها، وتحدد مساء الأحد 27 من يناير 1952 لعقد مؤتمر عام بمقر نقابة عمال ترام القاهرة، لتبادل الرأى حول النظام السياسى، وكانت النية متجهة إلى إعلان تأسيس "الاتحاد العام لنقابات عمال القطر المصري".

وكانت الأحداث تخبئ ما لم يكن فى الحسبان، فقد شب حريق القاهرة فى صباح السبت 26 من يناير عام 1952، وأعلنت الأحكام العرفية، وبذلك أصبح انعقاد المؤتمر مستحيلاً، وخاصة أن السلطات ألفت القبض على معظم زعماء النقابات وقادة اللجنة التحضيرية، وأفلت أحمد طه من الاعتقال ليشارك بعض زملائه إصدار وتوزيع بيان باسم "اللجنة التحضيرية" تستنكر فيه حريق القاهرة، وتنبه إلى أن أعمال التخريب والشغب لا تخدم إلا الاستعمار، وأنه "لا سبيل إلى إجلاء الاستعمار إلا بالكفاح الإيجابي والمحدد الأهداف وبتوحيد الصفوف".

قامت ثورة يوليو 1952، وكان من بين المحاكمات التى تمت فى شهورها الأولى محاكمة قتلة "الشهيد عبد القادر طه" الملازم الفنى، عضو الضباط الأحرار، وشقيق أحمد طه، وجاءت الإنجازات الأولى للثورة وما أعلنته من مبادئ محففة لما كافح من أجله أحمد طه وجيله من المناضلين النقابيين، ولكن الطريقة التى عومل بها عمال كفر الدوار عام 1953 وإعدام خميس والبقرى، وتغير موقف (حدثو) من مساندة "حركة الجيش" إلى اتهامها بالفاشية، وارتباط أحمد طه بالتنظيم جعله يتعرض للاعتقال طوال عقد الخمسينات، لا يترك المعتقل إلا هاربا تارة ومفرجا عنه أخرى حتى كانت سنوات الاعتقال الخمس التى التقيت به بعدها بشهور قلائل.

ولكن سنوات السجن لم تزد إلا صلابته، واستمرارا فى النضال الوطنى بطريقته الخاصة، وعندما بدأ مشروعه الصغير الذى لم يقدر له النجاح أو الاستمرار، وهو "دار الجماهير للنشر" بدأ بكتابين أحدهما بعنوان "المرأة..كفاحها وعملها"، تناول فيه قضية المرأة ودورها فى العمل الوطنى، ونصيبها من سوق

العمل، ونضالها النقابي. والكتاب الآخر شاركه في تأليفه بعض زملائه من "حدتو"، وحمل عنوان "الطبقة العاملة والكفاح السودانى المصرى المشترك"، ولا أعرف شيئاً عن الظروف التى دفعته إلى التوقف عن المضى قدماً فى المشروع، ولكنى أستطيع أن أتصور المضايقات التى قد تتعرض لها مثل هذه الدار، وخاصة أنها كانت متلق رفاق نضال الأربعينات.

وتمضي السنوات، وأحمد طه لا يكف عن العمل العام، فكان من بين المؤسسين الأوائل لحزب التجمع، ثم فترت علاقته به لظروف ما، وظهر اسمه بين مؤسسي "الوفد الجديد" ولعل ذلك يرجع إلى وجود بعض كوادر "الطليعة الوفدية" بين المؤسسين، وعندما اختلفوا مع فؤاد سراج الدين حول طريقة إدارته للحزب وتركوه، كان أحمد طه فى مقدمتهم.

وأخيراً، رأى الرجل أن يعمل مستقلاً فى خدمة أبناء حى الساحل الذى قضى حياته كلها فيه، وعندما رشح نفسه فى أول انتخابات تعددية تم إجراؤها فى عهد أنوار السادات اختار أن يرشح نفسه مستقلاً، ولكنه ظل ينسق مواقفه داخل المجلس مع ممثلي اليسار، وخاصة فى معارضة كامب ديفيد ومعاهدة السلام مع إسرائيل والتطبيع، وضافت الحكومة ذرعا بموافقة واستجاباته، فلقت له قضية تخابر مع بلغاريا، ووقف وزير الداخلية ليعلن بياناً زعم فيه أن لدى الحكومة أدلة دامغة على الاتهام، وتم القبض عليه وإلقاءه فى سجن القلعة مع بعض رفاقه حتى تكتمل ملامح القضية.

ولم تهن عزيمة أحمد طه، فرشح نفسه فى الانتخابات بدائرة الساحل وهو فى السجن، واكتشف بعد خروجه من السجن عندما برأ القضاء المصرى النزيه ساحته وساحة زملائه، اكتشف أنه نجح فى المرحلة الأولى، وأن النتيجة زورت لتتم الإعادة بالدائرة، وهو الهدف الحقيقى من تليفق قضية التخابر له لإبعاده عن مجلس الشعب.

ولكن النفس التى جلبت على النضال جعلته يخوض الانتخابات معتمداً على رصيده الكبير فى خدمة الجماهير الذين عاش بينهم طوال حياته، فاستعاد مقعد الدائرة بمجلس الشعب، وظل يلعب دور المعارض الوطنى الملتزم بقضايا أمته طوال وجوده بالمجلس.

وعلى صعيد العمل العام أسس "جمعية الشهيد للإسكان التعاونى" وقام ببناء عمارات سكنية تعاونية حقه، ولم يتخذ منها - كما فعل غيره - وسيلة للإثراء غير المشروع، بل اتخذ منها رسالة لخدمة أبناء دائرته، ولذلك خرج أبناء الساحل عن بكرة أبيهم لوداعه يوم الرحيل، تاركاً ذكرى عطرة لإنسان نبيل، أوقف حياته لخدمة جماهير شعبه بإخلاص.